



رسالة التوايع والزوايع

Author

ابن شهيد

رحلة ابن شهيد الأدبية إلى عالم الجن، ولقاءاته بتوايع الشعراء والكتاب ونقادهم.

Contents

3	المدخل
5	الفصل الأول - توابع الشعراء
29	الفصل الثاني - توابع الكتاب
38	الفصل الثالث - نقاد الجن
56	الفصل الرابع - حيوان الجن
60	Source credits
61	Back page

المدخل

لله أبا بكر ظنُّ رميته فأصميت، وحَدَس أملتَه فما أشويت أَبَدَيْتَ بهما وجهَ الجَلِيَّةِ، وكشفت إنْ غُرَّةَ الحقيقة، حين لمحت صاحبك الذي تكسَّبتَه ورأيتَه قد أخذ بأطراف السَّماء، فألف بين قمرِيها، ونظم فرقديها، فكلما رأى ثَغْراً سَدَّه بِسُهاها، أو لَمَحَ خرقاً رَمَّه بِزُباناها، إلى غير ذلك. فقلت: كيف أوني الحُكم صبيّاً، وهز بجديعِ نخلة الكلام فاساقط عليه رُطباً؛ أما إن به شيطاناً يهديه، وشيصباناً يأتِيه وأقسم أنْ له تابعة تُنجِده، وزابغة تُؤيِّده، ليس هذا في قدرة الإنس، ولا هذا النفس لهذه النفس. فأما وقد قُلْتُها، أبا بكر، فأصخ أسمعك العجب العُجاب: كنت أيام كُتِّب الهجاء، أجنُّ إلى الأدباء، وأصْبُو إلى تأليف الكلام؛ فاتبعْتُ الدَّواوين، وجلسْتُ إلى الأساتِيز، فنبض لي عِرْقُ الفهم، ودرَّ لي شريانُ العلم، بموادَّ روحانية، وقليلُ الالتماح من النظر يزيديني، وَيَسِيرُ المطالعة من الكتب يُفِيدُنِي، إذ صادف شَنْ العلم طبقة. ولم أَكُنْ كالثلجِ تَقْتَبِسُ منه نارا، ولا كالحمار يحملُ أسفاراً. فطعنت ثَغْرة البيان دراكاً، وأعلقتُ رجل طيره أشراكاً، فانتالت لي العجائب، وانهالت عليَّ الرغائب. وكان لي أوائل صبوتي هوى اشتدَّ به كلُفي، ثم لحقني بعد مَلَلٍ في أثناء ذلك المَلَل. فاتفق أن مات من كنتُ أهواه مدَّة ذلك المَلَل، فَجَزِعْتُ وأخذتُ في رثائه يوماً في الحائر، وقد أبْهَمْتُ عليَّ أبوابه، وانفردتُ فقلت:

تولى الجِمامُ بظبي الخُدُورِ،

وفازَ الرَّدَى بالغزالِ الغريرِ

إلى أن انتهيتُ إلى الاعتذارِ من المَلَل الذي كان، فقلت:

وكنْتُ مَلِئْتُكَ لا عن قَلِيٍّ،

ولا عن فسادٍ جرى في ضميري

فَأَرْتَجِ عَلَيَّ الْقَوْلَ وَأَفْحَمْتُ، فَإِذَا أَنَا بِفَارِسِ بِيَابِ الْمَجْلِسِ عَلَى فَرَسٍ أَدْهَمَ كَمَا بَقَلَ
وَجْهَهُ، قَدْ اتَّكَأَ عَلَى رُحْمِهِ، وَصَاحَ بِي: أَعْجَزًا يَا فَتَى الْإِنْسِ؟ قُلْتُ: لَا وَأَبْيَكُ، لِلْكَلامِ
أَحْيَانُ، وَهَذَا شَأْنُ الْإِنْسَانِ! قَالَ لِي: قُلْ بَعْدَهُ:

كَمِثْلِ مَلَالِ الْفَتَى لِلنَّعِيمِ،

إِذَا دَامَ فِيهِ، وَحَالَ السُّرُورِ

فَأَثْبُتْ إِجَازَتَهُ، وَقُلْتُ لَهُ: يَا أَبِي أَنْتَ! مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا زُهَيْرُ ابْنِ ثُمَيْرٍ مِنْ أَشْجَعِ الْجَنْ.
فَقُلْتُ: وَمَا الَّذِي حَدَاكَ إِلَى التَّصَوُّرِ لِي؟ فَقَالَ: هُوَ فِيكَ، وَرَغْبَةُ فِي اصْطِفَائِكَ. قُلْتُ:
أَهْلًا بِكَ أَيُّهَا الْوَجْهَ الْوَضَاحُ، صَادَفَنِي قَلْبًا إِلَيْكَ مَقْلُوبًا، وَهُوَ نَحْوُكَ مَجْنُوبًا. وَتَحَادَّثْنَا
حِينَئِذٍ قُلْتُ: مَتَى سَتُنْتِ أَتَحْضَرُنِي فَأَنْشُدَ هَذِهِ الْأَبْيَاتَ:

وَالِي زُهَيْرَ الْحُبِّ، يَا عَزَّ، إِنَّهُ

إِذَا ذَكَرْتَهُ الذَّاكِرَاتُ أَتَاهَا

إِذَا جَرَتْ الْأَفْوَاهُ يَوْمًا يَذْكُرُهَا

يُخَيِّلُ لِي أَنِّي أَقْبَلُ فَاهَا

فَأَغْشَى دِيَارَ الذَّاكِرِينَ، وَإِنْ نَأَتْ

أَجَارُ مِنْ دَارِي، هُوَ لَهَوَاهَا

وَأَوْثَبَ الْأَدْهَمَ جِدَارَ الْحَائِطِ ثُمَّ غَابَ عَنِّي. وَكُنْتُ، أَبَا بَكْرٍ، مَتَى أَرْتَجِ عَلَيَّ، أَوْ انْقَطَعَ بِي
مَسْلَكٌ، أَوْ خَانَنِي أُسْلُوبُ أَنْشُدُ الْأَبْيَاتَ فَيَمْتَلِئُ لِي صَاحِبِي، فَأَسِيرُ إِلَى مَا أُرْغَبُ، وَأَدْرِكُ
بِقَرِيحَتِي مَا أُطْلَبُ. وَتَأَكَّدْتُ صَحْبَتَنَا، وَجَرَتْ قِصَصُ لَوْلَا أَنْ يَطُولَ الْكِتَابُ لَذَكَرْتُ
أَكْثَرَهَا، لَكِنِّي ذَاكِرٌ بَعْضَهَا.

الفصل الأول - توابع الشعراء

شيطان امرئ القيس

تذاكرت يوماً مع زهير بن نمير أخبار الخطباء والشُعراء، وما كان يألُفُهُم من التوابع والزوابع، وقلتُ: هل حيلةٌ في لقاء من اتفق منهم؟ قال: حتى أستاذن شيخنا. وطار عني ثم انصرف كلمجٍ بالبَصَر، وقد أذن له، فقال: حُلْ على متن الجَوادِ. فصرنا عليه؛ وسار بنا كالطائر يجتابُ الجوَّ فالجَوَّ، ويقطعُ الدَّوَّ فالدَّوَّ، حتى التمحت أرضاً لا كأرضنا، وشارفتُ جواً لا كجونا، متفرع الشجر، عطر الزَّهر؛ فقال لي: حلت أرض الجن أبا عامر، فبمن تريدُ أن نبدأ؟ قلتُ: الخطباء أولى بالتقديم، لكني إلى الشعراء أشواق. قال: فمن تريدُ منهم؟ قلتُ: صاحب امرئ القيس. فأما العنان إلى وادٍ من الأدوية ذي دَوَحٍ تتكسرُ أشجاره، وتترنمُ أطياره، فصاح: يا عُثَيبةُ بن نوفل، بسقط اللوى فحومل، وبم دارةٍ جُلجل، إلّا ما عرضت علينا وجهك، وأنشدتنا من شعرك، وسمعت من الإنسي، وعرّفتنا كيف إجازتك له! فظهر لنا فارسٌ على فرسٍ شقراء كأنها تلتهب، فقال: حياك الله يا زهير، وحياً صاحبك أهذا فتاهم؟ قلتُ: هو هذا، وأيُّ جمرةٍ يا عُثَيبة! فقال لي: أنشد؛ فقلتُ: السيدُ أولى بالإنشاد. فتطامح طرفه، واهتزَّ عطفه، وقبضَ عنانَ الشقراء وضربها بالسوط، فسمت تُحضر طُولا عثا، وكرَّ فاستقبلنا بالصَّعدة هازاً لها، ثم ركزها وجعل يُنشد:

سما لك شوقٌ بعدما كان أقصرا

حتى أكملها ثم قال: لي: أنشد؛ فهمتُ بالحيصة، ثم اشتدَّت قُوى نفسي وأنشدت:

شَجَّته مَعانٍ من سُلَيمي وأدورُ

حتى انتهيتُ فيها إلى قول:

تَزَلُّ بها رِيحُ الصَّبَا فتَحَدَّرُ

تَكَلَّفْتُهَا والليلُ قد جاش بحره،

وقد جعلت أُمواجهُ تتكسرُ

ومن تحتِ حضني أبيضُ ذو سفاسقٍ،

وفي الكَفِّ من عَسَالَةِ الخَطِّ أَسْمُرُ

هُمَا صاحباي من لَدُنْ كُنْتُ يافعاً

مُقِيلانِ من جدِّ الفتى حين يَعْثُرُ

فذا جدولٌ في الغمدي تُسْقَى به المني

وذا غُصْنٌ في الكَفِّ يُجْنى فيثْمُرُ

فلما انتهيتُ تأملني عُتِيبَةٌ ثم قال: اذهب أجزئك. وغاب عَنَّا.

شيطان طرفة

فقال لي زهير: من تُريدُ بعد؟ قلتُ: صاحب طرفة. فجزعنا وادي عُتِيبَةٍ، وركضنا حتى انتهينا إلى غِيضَةٍ شجرها شجران: سَامٌ يَفُوخُ بهاراً، وشحرٌ يعبقُ هندياً وعاراً. فرأينا عيناً معيئةً تسيل، ويَدُورُ ماؤها فلكياً ولا يحُل. فصاح به زهير: يا عنترُ بن العجلان، حلَّ بك زهيرٌ وصاحبه، فبَحُولَةٍ، وما قطعت معها من ليلة، إلّا ما عرضت وجهك لنا! فبدا إلينا راکبٌ جميلُ الوجه، قد توشح السِّيف، واشتمل عليه كساء خَرّ، وبيده خَطِيّ، فقال: مرحباً بکما! واستنشدني فقلتُ: الزعيمُ أُولى بالإنشاد؛ فأنشد:

لِسُعْدَى بِحِزَّانِ الشُّرَيْفِ طُلُولِ

حَتَّى أَكْمَلَهَا، فَأَنْشَدْتَهُ مِنْ قَصِيدَةٍ:

أَمِنْ رَسْمِ دَارٍ بِالْعَقِيقِ مُجِيلِ

حَتَّى أَنْتَهَيْتُ إِلَى قَوْلِي:

وَلَمَّا هَبَطْنَا الْغَيْثَ تَذَعَّرُ وَحْشُهُ

عَلَى كُلِّ خَوَّارِ الْعَنَانِ أُسَيْلِ

وَنَارَتْ بَنَاتُ الْأَعْوَجِيَّاتِ بِالْضُّحَى

أَبَابِيلَ، مِنْ أَعْطَافٍ غَيْرِ وَبِيلِ

مُسَوِّمَةً نَعْتَدُهَا مِنْ خِيَارِهَا،

لِطَرْدِ قَنْبِصٍ، أَوْ لَطَرْدِ رَعِيلِ

إِذَا مَا تَغْنَى الصَّحْبُ فَوْقَ مَتُونِهَا

ضُحَيْنًا، أَجَابَتْ تَحْتَهُمْ بِصَهِيلِ

تَدُوسُ بِهَا أَبْكَارَ نَوْرِ كَأَنَّهُ

رِدَاءٌ عَزُوبِسٍ أَوْ ذَنْتُ بِحَلِيلِ

أَغْنَى قَتْلَنَاهُ بِغَيْرِ قَتِيلٍ

وَبَادَرَ أَصْحَابِي النَّزُولَ، فَأَقْبَلْتُ

كَرَادِيئُسٍ مِنْ غَضِّ الشَّوَاءِ نَشِيلٍ

نُمَسِّحُ بِالْحُودَانِ مِنْهُ،

إِذَا مَا اقْتَنَّصْنَا مِنْهُ غَيْرَ قَلِيلٍ

فَقُلْنَا لَسَلْقِيهَا: أَدْرَهَا سُلَافَةً

شَمُولاً، وَمِنْ عَيْنِيكَ صِرْفَ شَمُولٍ

فَقَالِمَ بَكَاسِيهِ مُكْبِعاً لَأَمْرِنَا،

يَمِيلُ بِهِ الْإِدْلَالُ كُلَّ مَمِيلٍ

وَشَعَشَعَ رَاحِيَهُ، فَمَا زَالَ مَائِلاً

بِرَأْسِ كَرِيمٍ مِنْهُمْ وَتَلِيلٍ

إِلَى أَنْ ثَنَاهُمْ رَاكِدِينَ، لَمَا احْتَسَوْا،

خَلِيعِينَ مِنْ بَطْشٍ وَفَضْلِ عُقُولٍ

نَشَاوَى عَلَى الزَّهْرَاءِ، صَرَعَى كَأَنَّهُمْ

فصاح عنتز: لله أنت! اذهب مُجَارًا. وغاب عنا. ثم ملنا عنه.

شيطان قيس بن الخطيم

فقال لي زهير: إلى من تثوق نفسك بعد من الجاهليين؟ قلت: كفاني من رأيث؛ اصرف وجه قصدنا أبي تمام. فركضنا ذات اليمين حيناً، ويشتد في إثرنا فارس كأنه الأسد، على فريس كأنها العقاب، وهو في عدوه ذلك يُنشد:

طعنث ابن عبد القيس طعنة ثائر،.....لها نفذ، لولا الشعاع، أضاءها

فاستربت منه، فقال لي زهير: لا عليك، هذا أبو الخطار صاحب قيس ابن الخطيم. فاستبى لبي من إنشاده البيت، وزددت خوفاً لجراته، وأتينا لم نُعرج عليه.

فصرف إليه زهير وجه الأدم، وقال: حيّاك الله أبا الخطار! فقال: أهكذا يُحَادُّ عن أبي الخطار، ولا يُخَطِرُ عليه؟ قال: علمناك صاحب قنص، وخفنا أن نشغلك.

فقال لي: أنشدنا يا أشجعي، وأقسم أنك إن لم تجد ليكوننَّ يوم شر. فأنشدته قولِي من قصيدة: منازلهم تبكي إليك عفاءها ومنها:

خليليَّ غوجا، بارك الله فيكما،

بدارتها الأولى تُحيي فناءها!

فلم أر أسراباً كأسرابها الدُمى،

ولا ذئب مثل قد رعى، ثم شاءها

ولا كضلالٍ كان أهدى لصبوتي،

ليالي يهديني الغرامُ خبائها
وما هاجَ هذا الشوقَ إلّا حمائمٌ،
بكيتُ لها لَمّا سمعتُ بُكاءها
عجبتُ لنفسي كيف مُلكها الهوى،
وكيف استَقَرَّ الغاياتُ إباءها؟
ولو أنني أنحتُ عليّ أكارمٌ؛
ترصّيتُ بالعرضِ الكريمِ جزاءها
ولكنّ جُرذانَ الثُّغورِ رمينني،
فأكرمتُ نفسي أن تُريقَ دماءها
إليك أبا مروان ألقبتُ رابياً
بحاجةِ نفسي ما حُرِبتُ خزاءها
هزّزْتُك في نصري ضحىً فكأنني
هزّزْتُ، وقد جئتُ الجبالَ، حراءها
نقضتُ عُرى عزمِ الزَّمانِ، وإن عَتا،

فلما انتهيت تبسم وقال: لنعم ما تخلصت! اذهب فقد أجزئك.

ناصر البدرى

ثم انصرفنا، وركضنا حتى انتهينا إلى شجرة غبراء يتفجر من أصلها عينٌ كمقلة حواء.
فصاح زهير: يا عتاب بن حبناء، حلّ بك زهير وصاحبه، فبعمرو والقمر الكالع، وبالرُقعة
المفكوكة الطابع، إلّا ما أريتنا وجهك! فانفلق ماء العين عن وجه فتى كفلة القمر، ثم
اشتقّ الهواء صاعداً إلينا من قعرها حتى استوى معنا فقال: حيّاك الله يا زهير، وحيّا
صاحبك! فقلت: وما الذي أسكنك قعر هذه العين يا عتاب؟ قال: حيائي من التحسين
باسم الشعر وأنا لا أحسنه. فصحت: ويلي منه؛ كلامٌ مُحدث ورب الكعبة! واستنشدني
فلم أنشده إجلالاً له، ثم أنشدته:

أبكيث، إذ طعنَ الفريق، فراقها

حتى انتهيت فيها إلى قولي:

إنّ امرؤ لعب الزمان بهمتي،

وسقيث من كأس الخطوب دهاقها

وكبوت طرّفاً في العلى، فاستضكت

حُمُرُ الأنام، فما تريمُ ثهاقها

وإذا ارتمت نحوي المني لأنالها،

وقف الزمان لها هناك فعاقها

فمَتَى أَوْمَلُ فِي الزَّمانِ لحاقها؟

فلما انتهيتُ قال: أنشدني من رثائك. فأُشِدُّته:

أُعِينَا امراً نَزَحَتْ عَيْنُهُ،

وَلَا تَعَجَبَا مِنْ جُفُونِ جَمَادِي

إِذَا الْقَلْبُ أَحْرَقَهُ بُثُّهُ،

فَإِنَّ الْمَدَامِيعَ تَلُو الْقَوَادِ

يَبُودُ الْفَتَى مَنَهلاً خَالِياً،

وَسَعْدُ الْمَنِيَةِ فِي كُلِّ وادٍ

وَيَصْرَفُ لِلْكَوْنِ مَا فِي يَدَيْهِ،

وَمَا الْكُونُ إِلَّا نَذِيرُ الْفَسَادِ

لَقَدْ عَثَرَ الدَّهْرُ بِالسَّابِقِينَ،

وَلَمْ يُعْجِزِ الْمَوْتَ رَكْضَ الْجَوَادِ

لَعَمْرُكَ مَا رَدَّ رَيْبَ الرَّدَى

أَرَيْبٌ، وَلَا جَاهِدٌ بِاجْتِهَادِ

وَلَوْ ضَرَبُوا دُونَهُ بِالسُّدَادِ

أَصْبَنَ، عَلَى بَطْشِهِمْ، جُرْهُمًا،

وَأَصْمَيْنَ، فِي دَارِهِمْ، قَوْمَ عَادٍ

وَأَقْصَعَنَ كَلْبًا عَلَى عِزَّةٍ،

فَمَا اعْتَرَّ بِالصَّافِنَاتِ الْجِيَادِ

إِلَى أَنْ انْتَهَيْتُ فِيهَا إِلَى قَوْلِي:

وَلَكِنِّي خَائِنِي مَعْشَرِي،

وَرُدْتُ يَفَاعًا وَبَيْلَ الْمَرَادِ

وَهَلْ ضَرَبَ السَّيْفُ مِنْ غَيْرِ كَفٍّ؟

وَهَلْ ثَبَّتَ الرَّأْسُ فِي غَيْرِ هَادٍ؟

فَقَالَ: زِدْنِي مِنْ رِثَائِكَ وَتَحْرِيفِكَ، فَأَنْشَدْتُهُ:

أَفِي كُلِّ عَامٍ مَصْرَعٌ لِعَظِيمٍ؟

أَصَابَ الْمَنَايَا حَادِثِي وَقَدِيمِي

هُوَ قَمَرًا قَيْسَ بْنِ عِبْلَانَ أَنْفَاءً،

فكيف لِقائِي الحادِثاتِ إذا سطِثْ،

وقد فُلَّ سيفي مِنْهُمُ وَعَزِيمي؟

وكيف اهتدائي في الخطُوبِ إذا دجت

وقد فقدت عيناي ضوءَ نُجوم؟

مضى السَّلَفُ الوَصَّاحُ إلا بقيةً،

ومنها:

رَمَيْتُ بها الأفاقَ عَنِّي غريبةً،

نتيجةَ خفاقِ الصُّلوعِ كَظيمٍ

لأُبدي إلى أهلِ الحجى مِنْ بواطني،

وأدلي بَعْدِي في ظواهرِ لُومٍ

أنا السَّيْفُ لم تتعبْ به كُفٌّ ضاربٍ،

صرومٌ إذا صادفتْ كَفٌّ صرُومٍ

سعيثُ بأحرارِ الرِّجالِ، فخانني

رجالٌ، ولم أُنَجِّدْ بِجِدِّ عَظيمٍ

فَضَعْتُ بَدَارَ مِنْهُمْ وَحَرِيمَ

فَقَالَ: إِنْ كُنْتُ وَلَا بُدَّ قَائِلًا، فَإِذَا دَعَيْتُكَ نَفْسُكَ إِلَى الْقَوْلِ فَلَا تَكْذِبْ قَرِيحَتَكَ، فَإِذَا أَكْمَلْتُ
فَجَمَاعُ ثَلَاثَةِ لَا أَقْلَ. وَنَقَحَ بَعْدَ ذَلِكَ، وَتَذَكَّرَ قَوْلَهُ:

وَجَشَّمَنِي خَوْفُ ابْنِ عَقَانَ رَدَّهَا،

فَتَقَفَّتْهَا حَوْلًا كَرِيئًا وَمَرْبَعًا

وَقَدْ كَانَ فِي نَفْسِي عَلَيْهَا زِيَادَةٌ،

فَلَمْ أَرَ إِلَّا أَنْ أُطِيعَ وَأَسْمَعَا

وَمَا أَنْتَ إِلَّا مُحْسِنٌ عَلَى إِسَاءَةِ زَمَانِكَ. فَقَبِلْتُ عَلَى رَأْسِهِ، وَغَاصَ فِي الْعَيْنِ.

صَاحِبُ الْبَحْتَرِيِّ

ثُمَّ قَالَ لِي زُهَيْرٌ: مَنْ تُرِيدُ بَعْدَهُ؟ قُلْتُ: صَاحِبُ أَبِي نُوَاسٍ؛ قَالَ: هُوَ بَدِيرُ حَنْتَةٍ مِنْذُ
أَشْهَرٍ، قَدْ عَلِبَتْ عَلَيْهِ الْخَمْرُ، وَدِيرُ حَنْتَةٍ فِي ذَلِكَ الْجَبَلِ. وَعَرَضَهُ عَلَيَّ، فَإِذَا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ
فِرَاسُخٌ. فِرْكَضُنَا سَاعَةً وَجَزْنَا فِي رِكَضِنَا بِقَصْرِ عَظِيمٍ قُدَّامَهُ نَاورِدٌ يَتَطَارَدُ فِيهِ فُرْسَانٌ،
فَقُلْتُ: لِمَنْ هَذَا الْقَصْرُ يَا زُهَيْرُ؟ قَالَ: لَطُوقِ بْنِ مَالِكٍ؛ وَأَبُو الطَّبِيعِ صَاحِبُ الْبُحْتَرِيِّ فِي
ذَلِكَ النَّوَرِدِ، فَهَلْ لَكَ فِي أَنْ تَرَاهُ؟ قُلْتُ: أَلْفُ أَجَلٍ، إِنَّهُ لَمَنْ أَسَاتِيذِي، وَقَدْ كُنْتُ أَنْسِيئُهُ.
فَصَاحَ: يَا أَبَا الطَّبِيعِ! فَخَرَجَ فَتَنَى عَلَى فَرَسٍ أَشْعَلَ، وَبِيَدِهِ قَنَازَةٌ، فَقَالَ لَهُ زُهَيْرٌ: إِنَّكَ
مُؤْتَمِنٌ؛ فَقَالَ: لَا، صَاحِبُكَ أَشْمَخُ مَارِنًا مِنْ ذَلِكَ، لَوْلَا أَنَّهُ يَنْقُصُهُ. قُلْتُ: أَبَا الطَّبِيعِ عَلَى
رِسْلِكَ، إِنَّ الرِّجَالَ لَا تُكَالُ بِالْقُفْزَانِ. أَنْشَدْنَا مِنْ شَعْرِكَ. فَأَنْشَدَ:

مَا عَلَى الرِّكَبِ مِنْ وَقُوفِ الرِّكَابِ

هَذِهِ دَارُ زَيْنَبٍ وَالرَّبَابِ

حتى انتهيتُ فيها إلى قولي:

وارتكضنا حتى مضى الليلُ يسعى،

وأتى الصبحُ قاطعَ الأسبابِ

فكأنَّ النجومَ في الليلِ جيشٌ

دخلوا للكُمُونِ في جوفِ غابِ

وكانَ الصباحُ قانصُ طيرِ

قبضتُ كفَّهَ برجلِ غرابِ

وفُتِّتُوا سَرَوَا وقد عكفَ اللي

ل وأرخی مُغْدَوِينَ الْأَطْنَابِ

وكانَ النجومَ لَمَّا هَدَّتْهُمْ

أَشْرَقَتْ لِلْعِيُونِ مِنْ آدَابِ

يَتَقَرَّرُونَ جَوَرَ كُلِّ فَلَاةٍ،

جُنْحَ لَيْلٍ، جَوَازُوهُ مِنْ رِكَابِي

من حديثي في عرض أمرٍ عَجَابٍ

هَمَّةٌ في السماء تسحب ذِيلاً،

من ذبول العُلَى، وَجَدُّ كَابٍ

ولو أن الدنيا كَرِينَةُ نَجْرِ،

لم تكن طُعْمَةً لَفَرْسِ الْكِلاَبِ

جيفةٌ أَنتَنَتْ فطار إليها،

ومنها:

من شَهِيدٍ في سَرَّها، ثم من أَش

جَعَ في السَّرِّ من لُبَابِ اللبَابِ

خُطْبَاءِ الْأَنَامِ، إن عَنَّ خَطْبٌ،

وأَعَارِيْبُ في مُتُونِ عِرَابٍ

حتى أَكْمَلْتُهَا. فكأنما غَشَى وَجَهَ أَبِي الطَّبَعِ قِطْعَةٌ من اللَّيْلِ. وَكَزَّ رَاجِعاً إِلَى نَاوِزِهِ دُونَ
أَنْ يُسَلَّمَ. فَصَاحَ بِهِ زَهِيرٌ: أَأَجَزْتَهُ؟ قَالَ: أَجَزْتُهُ، لَا بَوْرِكَ فَيْكَ مِنْ زَائِرٍ، وَلَا فِي صَاحِبِكَ
أَبِي عَامِرٍ!

صاحب أبي نواس

فَضْرَبَ زَهِيرُ الْأُدْهَمُ بِالسُّوْطِ، فَسَارَ بَنَّا فِي قَنْنِهِ، وَسِرْنَا حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى أَصْلِ جَبَلِ دِيرٍ

حَنَّة، فشَقَّ سَمْعِي قِرْعَ النِّوَابِيسِ، فَصَحْتُ: مِنْ مَنَازِلِ أَبِي نَوَاسٍ، وَرَبِّ الْكَعْبَةِ الْعَلِيَاءِ!
وَسِرْنَا نَجْتَابُ أَدْيَاراً وَكِنَانُوسَ وَحَنَاتٍ، حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى دَيْرٍ عَظِيمٍ تَعْبِقُ رَوَائِحُهُ،
وَتَصُوكُ نَوَافِحُهُ. فَوَقَفَ زَهِيرٌ بِبَابِهِ وَصَاحَ: سَلَامٌ عَلَى أَهْلِ دَيْرِ حَنَّةِ! فَقُلْتُ لَزَهِيرٍ:
أَوَهْلٍ صِرْنَا بِذَاتِ الْأَكْجِيرَاجِ؟ قَالَ: نَعَمْ. وَأَقْبَلْتُ نَحُونَا الرَّهَابِيِّينَ، مُشَدَّدةً بِالزَّنَانِيرِ، قَدْ
قَبِضَتْ عَلَى الْعَكَاكِيزِ، بِبَيْضِ الْحَوَاجِبِ وَاللَّحَى، إِذَا نَظَرُوا إِلَى الْمَرْءِ اسْتَحْيَا، مُكَثِّرِينَ
لِلتَّسْبِيحِ، عَلَيْهِمْ هَدْيُ الْمَسِيحِ. فَقَالُوا: أَهْلاً بِكَ يَا زَهِيرُ مِنْ زَائِرٍ، وَبِصَاحِبِكَ أَبِي عَامِرٍ!
مَا بُغِيْتُكَ؟ قَالَ: حَسِينُ الدَّنَانِ.

قَالُوا: إِنَّهُ لَفِي شُرْبِ الْخَمْرِ، مِنْذُ أَيَّامٍ عَشْرَةٍ، وَمَا تُرَاكِمَا مُنْتَفِعِينَ بِهِ. فَقَالَ: وَعَلَى ذَلِكَ.
وَنَزَلْنَا وَجَاؤُوا بِنَا إِلَى بَيْتٍ قَدْ اصْطَفَتْ دِنَانُهُ، وَعَكَفَتْ غِزْلَانُهُ، وَفِي فُرْجَتِهِ شَيْخٌ
طَوِيلُ الْوَجْهِ وَالسَّبَلَةِ، قَدْ افْتَرَشَ أَضْغَاثَ زَهْرٍ، وَاتَّكَأَ عَلَى رِقِّ خَمْرٍ، وَبِيَدِهِ طَرْجَهَارَةٌ،
وَحَوَالِيهِ صَبِيئَةٌ كَأُطْبٍ تَعْطُو إِلَى عَرَارَةٍ. فَصَاحَ بِهِ زَهِيرٌ: حَيَّاكَ اللَّهُ أَبَا الْإِحْسَانِ!
فَجَاوَبَ بِجَوَابٍ لَا يُعْقِلُ لَغْلَبَةِ الْخَمْرِ عَلَيْهِ. فَقَالَ لِي زَهِيرٌ: اقْرَعُ أُذُنَ نَشْوَتِهِ بِأَحْدَى
خَمَرِيَّاتِكَ، فَإِنَّهُ رِمَا تَنْبَهُ لِبَعْضِ ذَلِكَ. فَصَحْتُ أَنْشُدَ مِنْ كَلِمَةٍ لِي طَوِيلَةٍ:

وَلِرَبِّ حَانٍ قَدْ أَدْرْتُ بِدِيرِهِ

خَمْرُ الصَّبَا مُزَجَّتْ بِصَفْوِ خُمُورِهِ

فِي فِتْيَةٍ جَعَلُوا الزُّرْقَاقَ تِكَاءَهُمْ،

مُتَصَاغِرِينَ تَخْشَعاً لِكَبِيرِهِ

وَالِي عَلَيَّ بِطَرْفِهِ وَبِكَفِّهِ،

فَأَمَالَ مِنْ رَأْسِي لَعَبَ كَبِيرِهِ

وَتَرَنَّمُ النَّاقُوسَ عِنْدَ صَلَاتِهِمْ،

فَفَتَحْتُ مِنْ عَيْنِي لِرَجْعِ هَدِيرِهِ

يُهْدِي إِلَيْنَا الرَّاحَ كُلَّ مُعْصَفَرِي،

كَالْخِشْفِ حَقَّرَهُ التِّمَاحُ خَفِيرِهِ

فصاح من حبائل نشوته: أَأَشْجَعِي؟ قُلْتُ: أنا ذاك! فاستدعى ماء قَرَّاحاً، فشرب منه
وغسل وجهه، فأفاق واعتذر إليّ من حال. فأدركتني مَهَابَتُهُ، وأخذت في إجلاله لمكانه
من العلم والشعر. فقال لي: أنشد، أو حتى أنشدك؟ فقلت: إنَّ ذلك لأشدَّ لتأنيسي، على
أنه ما بعدك لمُحَسِّنٍ إحسانٌ. فأنشد:

يَا دِيرَ حَنَّةٍ مِنْ ذَاتِ الْأَكْغِيرَاحِ،

مَنْ يَصْحُ عَنْكَ فَأَنِي لَسْتُ بِالصَّاحِي

يَعْتَادُهُ كُلُّ مَحْفُوفٍ مَفَارِقُهُ

مِنْ الدَّهَانِ، عَلَيْهِ سَخَقُ أَمْسَاحٍ

لَا يَدِلِفُونُ إِلَى مَاءٍ بَأْنِيَّةٍ،

إِلَّا اغْتِرَافاً مِنَ الْغُدْرَانِ بِالرَّاحِ

فَكَدْتُ وَاللَّهِ أَخْرَجَ مِنْ جِلْدِي طَرِباً، ثُمَّ أَنْشَدُ:

وَأَنْشَدُ أَيْضاً:

لَمَنْ دِمْنٌ تَزْدَادُ طَيْبَ نَسِيمٍ،

على طول ما أَقْوَتْ، وَحُسْنَ رُسُومِ

تجافى البلى عنهم حتى كأنما

لبسَن، من الإقواء، ثوبَ نعيمٍ

واستمرَّ فيها حتى أكملها. ثم قال لي: أنشد. فقلت: وهل أبقىَت للإِنشاد موضعاً؟ قال: لا
بُدَّ لك، وأوعِثْ بي ولا تُنَجِد. فأنشدته:

أصباحُ شيمٍ أمَ برقٍ بدا،

أم سنا المحبوبِ أورى أُرُندا

هَبَّ من مرقدِه منكسِيراً،

مسبلاً للكم، مُرخٍ للردا

يمسح النعسة من عيني رشاً،

صائدٍ في كل يومٍ أسدا

قلت: هَب لي يا حبيبي قُبلةً،

تَشِف من عمك تبريح الصدى

فأثنى يهتزُّ من منكبه،

قائلاً: لا! ثم أعطاني اليدَا

كَلَّمَا كَلَّمَنِي قَبْلُثُهُ،

فَهُوَ إِمَّا قَالَ قَوْلًا رَدَّدَا

كَانَ أَنْ يَرْجِعَ، مِنْ لُثْمِي لَهُ

وَارْتِشَافِي الثَّغَرَ مِنْهُ، أُدْرِدَا

قَالَ لِي يَلْعَبُ: خُذْ لِي طَائِرًا،

فَتَرَانِي الدَّهْرَ أَجْرِي بِالْكُدَى

وَإِذَا اسْتَنْجَزْتُ يَوْمًا وَعْدَهُ،

قَالَ لِي يَمْطُلُ: ذَكَّرَنِي غَدَا

شَرِبْتُ أَعْطَافُهُ خَمْرَ الصَّبَا،

وَسَقَاهُ الْحُسْنَ حَتَّى عَزَبَدَا

وَإِذَا بَتُّ بِهِ، فِي رَوْضَةٍ،

أَغِيدًا يَعْرِو نَبَاتًا أَغِيدَا

قَامَ فِي اللَّيْلِ بِجِيدٍ أَثْلَعِ،

يَنْقُضُ اللَّمَّةَ مِنْ دَمْعِ النَّدَى

عَمَمْتُ صُبْحاً بَلِيلِ أُسُودَا

أَحَحْتُ مِنْ عَصَّتِي فِي نَهْدِهَا،

ثُمَّ عَصَّتْ حُرٌّ وَجْهِي عَمَدَا

فَأَنَا الْمَجْرُوحُ مِنْ عَصَّتِهَا،

لَا شَفَانِي اللَّهُ مِنْهَا أَبَدًا!

فلما انتهيتُ قال: لله أنت! وإن كان طُبْعُكَ مَخْتَرَعاً مِنْكَ؟ ثم قال لي: أنشدني من رِثَائِكَ شيئاً؟ فأنشدته من قولي في بُنْيَةِ صَغِيرَةٍ:

أَيُّهَا الْمَعْتَدُّ فِي أَهْلِ النَّهْيِ،

وَلَا تَنْدُبْ، إِثْرَ فَقِيدٍ، وَلَهَا

حَتَّى أَنْتَهَيْتُ إِلَى قَوْلِي:

وَإِذَا الْأُسْدُ حَمَتْ أَغْيَالَهَا،

لَمْ يَضُرَّ الْخَيْسَ صِرَعَاتُ الْمَهَا

وْغَرِيبُ يَا ابْنَ أَقْمَارِ الْعُلَا،

أَنْ يُرَاعِ الْبَدْرُ مِنْ فَقْدِ السُّهَا

فلما انتهيتُ قال لي: أنشدني من رِثَائِكَ أشدَّ من هذا وأفصح. فأنشدته من رِثَائِي فِي ابْنِ دَكْوَانَ. ثم قال: أنشدني جَحْدَرِيَّتَكَ مِنَ السَّجْنِ؛ فأنشدته: قَرِيبٌ بِمُخْتَبَلِ الْهَوَانِ

بعيد حتى انتهيت فيها إلى قولي:

فإن طال ذكري بالمُجون فإنني

شقيّ بمنظوم الكلام سعيّد

وهل كنت في العشاق أول عاشقٍ،

هَوْتُ بحجّاه أعيّن وخدود؟

فمَن مبلغُ الفتيان أني بعدهم

مقيمٌ بدار الظالمين طَريدٌ

ولستُ بذئيرٍ قديدٍ يرقُّ، وإنما

على اللحظ من سُخط الإمام قيودُ

فبكى لها طويلاً. ثم قال: أنشدني قطعةً من مجونك، فقد بُعد عهدي بمثلك.

فأنشدته:

وناظرةً تحت طيّ القناع،

دعاها إلى الله والخير داعٍ

سَعَت بآبِهَا تبغي منزلاً،

فجاءت تهادى كمثل الرُّؤوم،

ثراعي غزالاً بأعلى يَفاع

أُتتنا تبخُترُ في مشيها،

فحلّت بوادٍ كثير السَّبَاعِ

وريعت جِذاراً على طفلها،

فناديت: يا هذه لا ثراعي!

فوَلّت وللمسك من ذيلها،

على الأرض، خطَّ كظهر الشُّجاعِ

فلما سمع هذا البيت قام يرقص به ويردده، ثم أفاق، ثم قال: هذا والله شيء لن نلهمه نحن، ثم استدنانى فدنوث منه فقبل بين عيني، وقال: اذهب فإنك مجاز. فانصرفنا عنه وانحدرنا من الجبل.

صاحب أبي الطيب

فقال لي زهير: ومن تريد بعد؟ قلت له: خاتمة القوم صاحب أبي الطيب؛ فقال: اشدد له حيازيمك، وعطر له تسمك، وانثر عليه نجومك. وأمال عنان الأدهم إلى طريقي، فجعل يركض بنا، وزهير يتأمل آثار فرسٍ لمحناها هناك؟ فقلت له: ما تتبعك لهذه الآثار؟ قال: هي آثار فرس حارثة بن المغلس صاحب أبي الطيب، وقصدي هو صاحب قنص. فلم يزل يتقرأها حتى دفعنا إلى فاريس على فرس بيضاء كأنه قضيب على كتيب، وبيده قناة قد أسندها إلى عنقه، وعلى رأسه عمامة حمراء قد أرخى لها عذبة صفراء. فحياه زهير، فأحسن الرد ناظراً من مقلّة شوساء، قد ملئت تيهاً وعجباً. فعرفه

زهيرٌ قصدي، وألقى إليه رغبتِي. فقال: بلغني أنه يتناول؛ قلت: للضرورة الدافعة، وإلا فالقريحة غير صادعة، والشفرة غير قاطعة. قال: فأنشدني؛ وأكبرته أن أستنشده، فأنشدته قصيدتي التي أولها: أبرق بدا أم لمع أبيض قاصِلٍ حتى انتهيت إلى قلبي:

تردّد فيها البرقُ حتى حسبتهُ

يشير إلى نجمِ الرُّبى بالأناملِ

ربّي نسجت أَيْدي العَمام للبسها

غلائلٌ صُفراً، فوق بيضِ غلائلِ

سهرت بها أرعى النجوم وأنجماً

طوالع للراعين، غير أوافلي

وقد فغرث فاها بها كلّ زهرة،

إلى كل صَرعٍ للعَمامة حافلِ

ومرّت جيوش المُزن رَهاً، كأنها

عساكر زُنُجٍ مذهباتِ المناصلِ

وحلّقت الخضراء في غُرّ شُهبها،

كلّجة بحرٍ كُلّلت باليعالِ

على شطّ وادٍ للمجرّة سائل
وتلمح من جَوَرائها في غُروبها
نساقتُ عريشِ واهنِ الدعمِ مائلِ
وتحسب صقراً واقعاً دَبَرانها،
بُعْشُ الثريا فوق حمر الحواصلِ
وبَدَرَ الدجى فيها غديراً، وحوله
نجومٌ كطلعات الحمام النواهلِ
كأن الدجى همّي، ودمعي نجومه،
تحدّر إشفاقاً لدهر الأراذلِ
هوث أنجم العلياء إلا أقلّها،
وغبنَ بما يحظى به كل عاقلِ
وأصبحثُ في خلفِ إذا ما لمحتهم
تبينُ أن الجهلِ إحدى الفضائلِ
وما طاب في هذي البريّة آخرُ،

أرى حُمْراً فوق الصواهلِ جَمَّةً،
فأبكي بَعَيْنِي ذُبْلَ تلك الصواهلِ
ورُبَّتْ كُتَّابٍ إذا قَبِيلٌ: زُوروا،
بكتُ من تأنيهِم صُدُورُ الرِسَالِ
وناقِلُ فِقْهِ لم يرَ الله قلبه،
يظنُّ بأن الدينَ حِفْظُ المسائِلِ
وحاملِ رَمحِ راحٍ، فوق مَضائِهِ،
به كاعباً في الحَيِّ ذاتِ مغازلِ
حُبُّوا بالْمُنَى دوني، وغودِرْتُ دونهم
أرودُ الأمانِي في رياضِ الأباطِلِ
وما هي إلا هَمَّةٌ أشجعيَّةٌ،
ونفْسٌ أبْتَلِي من طِلابِ الرِذائِلِ
وفهِّمِ لو البرجيسُ جثَّتْ بجَدِّه،
إذاً لتلقاني بنحسِ المقاتِلِ

وأغرق قُزْنَ الشمس بعض جداولي

رحلتُ إلى خير الورى كلَّ حرّة

من المدح، لم تَخْمُلْ بِرَعِي الخمائلِ

وكدتُ لفضلِ القول أبلغُ ساكتاً،

وإن ساء حُسادي مدى كلِّ قائلٍ

فلما انتهيتُ قال: أنشدني أشدَّ من هذا. فأنشدته قصيدتي: هاتيك دارُهُمْ فَقِفْ بمَعانِها

فلما انتهيتُ، قال لزهير: إن امتدَّ به طلق العُمر، فلا بدَّ أن بنفتُ بَدْر، وما أراه إلا
سيُحتَضَر، بين قريحَةٍ كالجمر، وهَمَّةٍ تضع أخمصه على مفرقِ البدر.

فقلت:

أهلاً وضعته على صِلعة النسر؟ فاستضحك إليّ وقال: اذهب فقد أجزّتك بهذه التُّكْتة.
فقبَلْتُ على رأسه وانصرفنا.

الفصل الثاني - توابع الكتاب

فقال لي زهير: من تريد بعده؟ فقلت: ملّ بي إلى الخطباء، فقد قضيت وطرّاً من الشعراء. فركضنا حيناً طاعنين في مطلع الشمس، ولقينا فارساً أسرّ إلى زهير، وانجزع عنا، فقال لي زهير: جُمعت لك خطباء الجنّ بمَرْج دُهمان، وبيننا وبينهم فرسخان، فقد كُفيت العناء إليهم على انفرادهم. قلت: لم ذاك؟ قال: للفرق بين كلامين اختلف فيه فتیان الجن.

وانتهينا إلى المَرْج فإذا بناي عظيم، قد جمع كل زعيم، فصاح زهير: السلام على فرسان الكلام. فردّوا وأشاروا بالنزول. فأفروا حتى صرنا مركز هالة مجلسهم، والكل منهم ناظرٌ إلى شيخٍ أصلع، جاحظ العين اليمنى، على رأسه قلنسوة بيضاء طويلة. فقلت سرّاً لزهير: من ذلك؟ قال: عُثبة بن أرقم صاحب الجاحظ، وكُنيتُه أبو عُبيدة. قلت: بأبي هو! ليس رغبتني سواه، وغير صاحب عبد الحميد. فقال لي: إنه ذلك الشيخ الذي إلى جنبه. وعرفه صغوي إليه وقولي فيه. فاستدنانني وأخذ في الكلام معي، فصمت أهل المجلس، فقال: إنك لخطيب، وحائكٌ للكلام مجيد، لولا أنك مُغرئٌ بالسجع، فكلامك نظمٌ لا نثر.

فقلت في نفسي: قرعك، بالله، بقارعتة، وجاءك بمُماثلته. ثم قلت له: ليس هذا، أعزّك الله، منّي جهلاً بأمر السجع، وما في المماثلة والمقابلة من فضل، ولكني عدتُ فرسان الكلام، ودُهيْتُ بغبَاوة أهل الزمان، وبالْحَرَا أن أحركهم بالازدواج. ولو فرشتُ للكلام فيهم طَولقاً، وتحركت لهم حركة مَشُولم، لكان أرفع لي عندهم، وأولج في نفوسهم.

فقال: أهذا على تلك المناظر، وكبر تلك المحابر، وكمال تلك الطيالس؟ قلت: نعم، إنها لحاء الشجر، وليش ثمّ ثمراً ولا عبق. قال لي: صدقت، إني أراك قد مائلت معي. قلت: كما سمعت. قال: فكيف كلامهم بينهم؟ قلت: ليس لسيوييه فيه عمل، ولا للقراهيدي إليه طريق، ولا للبيان عليه سمة. إنما هي كُنْةٌ أعجميةٌ يُؤدّون بها المعاني تأدية المَجُوس والنَّبَط. فصاح: إنا لله، ذهب العربُ وكلامُها! ارمهم يا هذا بسجع الكهان، فعسى أن ينفعك عندهم، ويُطير لك ذكراً فيهم. وما أراك، مع ذلك، إلا ثقيل الوطأة

عليهم، كربةً المجيء إليهم. إ فقال الشيخ الذي إلى جانبه، وقد علمت أنه صاحب عبد الحميد، ونفسي مرتقبةً إلى ما يكون منه: لا يَغُرُّكَ منه، أبا غُيَّنة، ما تكلف لك من المماثلة، إن السجع لطبعه، وإن ما أسمعك كلفة. ولو امتد به طَلَّق الكلام، وجرت أفراسه في مَيِّدان البَيان، لصلى كودنه وكل بُرْثُته. وما أراه إلا من اللُكن الذين ذَكَر، وإلا فما للفصاحة لا تهدير، ولا للأغرابية لا تومض؟ فقلت في نفسي: طبع عبد الحميد ومسافه، وربَّ الكعبة! فقلت له: لقد عَجَلْتَ، أبا هُبيرة، - وقد كان زهيرٌ عَرَفَنِي بِكُنْيَتِهِ - إن قوسَكَ لنبيع، وإن سهمك لِسُمِّ، أجماراً رميت أن إنساناً، وقعقةً طلبت أم بَياناً؟ وأبيك، إن البَيان لصعب، وإنك منه لفي عباءةٍ تتكشف عنها أشتاه معانيك، تكشف است العز عم ذنبها. الزمان دفء لا قَر، والكلام، عراقي لا شامي. إني لأرى من دم اليربوع بكفك، وألمح من كُشى الضب على ماضغيك. فتبسم إلي وقال: أهكذا أنت يا أَطِيلِس، تركب لكل نهجه، وتعج إليه عجه؟ فقلت: الذئب أطلس، وإن التيس ما علمت! فصاح به أبو غُيَّنة: لا تعرض له، وبالحرأ أن تخلص منه. فقلت: الحمد لله خالق الأنام في بطون الأنعام! فقال: إنها كافية لو كان له جحر. فبسطاني وسألاني أن أقرأ عليهما من رسائلي، فقرأت رسالتي في صفة البَرْد والنار والحطب فاستحسنها.

رسالة الحلواء

ومن رسالتي في الحلواء حيث أقول: خرجت في لمةٍ من الأصحاب، وثبةً من الأتراب، فيهم فقيه ذو لقم، ولم أعرف به، وغريم بطن، ولم أشعر له، رأى الحلواء فاستخقه الشره، واضطرب به الوله، فدار قس ثيابه، وأسأل من لعبه، حتى وقف بالأكداس وخالط غمار الناس، ونظر إلى الفالودج فقال: بأبي هذا اللفص، انظروه كأنه الفص؛ مُجاجةُ الزنابير، أُجريت على شوابير، وخالطها لباب الحبة، فجاءت أعذب من ريق الأُحبة.

ورأى الخبيص فقال: بأبي هذا الغالي الرخيص، هذا جليدُ سماء الرِّحمة، تمخضت به فأبرزت منه زبد التَّعْمة، يُجرَحُ بالَّلَحْظ، ويذوبُ من اللَّفْظ. ثم ابْيَضَّ، قالوا بماء البيض البض، قال غَضُّ من غَضُّ، ما أطيب خلوة الحبيب، لولا حضرة الرَّقِيب! ولمح الشَّيْطَاء، فصاح: بأبي نُقْرةُ الفضة البيضاء، لا تَرُدُّ عن العَصَّة. أبنار طُبحت أم بُنُور؟ فإني أراها كقطع البذور؛ وبلور عُجنت أم بِجَوز؟ فإني أراها عين عجين الموز. وموشى إليها وقد

عَدَلْ صَاحِبُهَا بِدَرَهْمَيْنِ، وَانْتَهَشَهَا بِالنَّابِينِ، فَصَاح: الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ؟! هَيْه! وَيْلٌ لِلْمَرْءِ مِنْ فِيهِ! وَرَأَى الزَّلَّابِيَّةَ، فَقَالَ: وَيْلٌ لَأَمَّهَا الزَّانِيَّةُ، أَبَاحْشَائِي تُسَجِّثُ، أَمْ مِنْ صِفَاقِ قَلْبِي أُلْفَتُ؟ فَإِنِّي أَجِدُ مَكَانَهَا مِنْ نَفْسِي مَكِينًا، وَحَبْلُ هَوَاهَا عَلَى كَبْدِي مَتِينًا، فَمَنْ أَيْنَ وَصَلْتَ كَفَّ طَابَخُهَا إِلَى بَاطِنِي، فَاقْتَطَعْتُهَا مِنْ دَوَاجِنِي؟ وَالْعَزِيزُ الْغَفَّارُ، لَأَطْلُبُهَا بِالنَّارِ! وَمَشَى إِلَيْهَا، فَتَلَمَّظَ لَهُ لِسَانُ الْمِيزَانِ، فَأَجْفَلَ يَصِيحُ: الثُّعْبَانُ الثُّعْبَانُ! وَرُفِعَ لَهُ تَمْرُ النَّشَا، غَيْرَ مَهْضُومِ الْحِشَا، فَقَالَ: مَهِيم! مَنْ أَيْنَ لَكُمْ جَنَى نَخْلَةِ مَرْيَمَ؟ مَا أَنْتُمْ إِلَّا السَّحَارُ، وَمَا جَزَاؤُكُمْ إِلَّا السَّيْفُ وَالنَّارُ. وَهُمْ أَنْ يَأْخُذَ مِنْهَا. فَأَثْبَتَ فِي صَدْرِهِ الْعَصَا، فَجَلَسَ الْقُرْفُصَا، يُذِرِي الدُّمُوعَ، وَيُبْدِي الْخُشُوعَ. وَمَا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا عَنِ الصَّحْكَ قَدْ تَجَلَّدَ. فَرَقَّتْ لَهُ ضُلُوعِي، وَعَلِمْتُ أَنَّ فِيهِ غَيْرَ مُضِيعِي. وَقَدْ تَجَمَّلَ الصَّدَقَةُ عَلَى ذَوِي وَفَرٍ، وَفِي كُلِّ ذِي كَبِدٍ رَطْبَةٌ أَجْرٌ. فَأَمْرُثُ الْغَلَامَ بِابْتِيَاعِ أَرْطَالٍ مِنْهَا تَجْمَعُ أَنْوَاعَهَا الَّتِي أَنْطَقَتْهُ وَتَحْتَوِي عَلَى ضُرُوبِهَا الَّتِي أَضْرَعَتْهُ، وَجَاءَ بِهَا وَسَرْنَا إِلَى مَكَانٍ خَالٍ طَيِّبٍ، كَوْصَفِ الْمُهْلَبِيِّ:

خَانٌ تَطْيِبُ لِبَاغِي الثُّسْكِ خَلُوتُهُ

وَفِيهِ سِتْرٌ عَلَى الْفَتَاكِ إِنْ فَتَكُوا

فَصَّهَا رَطْبَةُ الْوُقُوعِ، كَرَادَيْسٍ كَقَطْعِ الْجُدُوعِ؛ فَجَعَلَ يَقْطَعُ وَيَبْلَعُ، وَيَدْخُوا فَاهُ وَيَدْفَعُ، وَعَيْنَاهُ تَبْصَانُ كَأَنَّهُمَا جَمْرَتَانِ، وَقَدْ بَرَزَتَا عَلَى وَجْهِهِ كَأَنَّهُمَا خُصِيَتَانِ، وَأَنَا أَقُولُ لَهُ: عَلَى رَسْلِكَ أَبَا فَلَانِ! الْبَطْنَةُ تَذْهَبُ الْفَطْنَةُ! فَلَمَّا التَّقَمَ جُمْلَةً جَمَاهِيرَهَا، وَأَتَى عَلَى مَآخِيرَهَا، وَوَصَلَ خَوْرَنَقَهَا بِسَدِيرَهَا، تَجَشَّأَ فَهَبَتْ مِنْهُ رِيحٌ عَقِيمٌ، أَيقِنَا لَهَا بِالْعَذَابِ الْأَلِيمِ. فَتَنَرْتَنَا شَذَرَ مَذَرٍ، وَفَرَّقَتْنَا شَغَرَ بَغَرٍ، فَالتَحَمْنَا مِنْهُ الطَّرِيَانِ، وَصَدَّقَ الْخَبَرَ فِيهِ الْعَيَانُ: نَفَحَ ذَلِكَ فَشَرْدَ الْأَنْعَامِ، وَنَفَخَ هَذَا فَبَدَّدَ الْأَنَامِ، فَلَمْ نَجْتَمِعْ بَعْدَهَا، وَالسَّلَامُ. فَاسْتَحْسَنَاهَا، وَضَحَكَا عَلَيْهَا، وَقَالَا: إِنَّ لِسَجْعِكَ مَوْضِعًا مِنَ الْقَلْبِ، وَمَكَانًا مِنَ النَّفْسِ، وَقَدْ أَعْرَتَهُ مِنْ طَبْعِكَ، وَحَلَاوَةِ لَفْظِكَ، وَمَلَا حَاجَةَ سَوْقِكَ، مَا أَزَالَ أَفْنَهُ، وَرَفَعَ غَيْنَهُ، وَقَدْ بَلَغْنَا أَنْكَ لَا تُجَازِي فِي أَبْنَاءِ جَنْسِكَ، وَلَا يُمَلُّ مِنَ الطَّعْنِ عَلَيْكَ، وَالْإِعْتِرَاضِ لَكَ. فَمَنْ أَشَدُّهُمْ عَلَيْكَ؟ إقْلَتْ: جَارَانِ دَارُهُمَا صَقَبٌ، وَثَالِثُ نَابَتِهِ ثُوبٌ، فَامْتَطَى ظَهْرَ النَّوَى، وَأَقْلَتَ بِهِ فِي سِرْقَسُطَةِ الْعَصَا. فَقَالَا: إِلَى أَبِي مُحَمَّدٍ تُشِيرُ، وَأَبِي الْقَاسِمِ وَأَبِي بَكْرٍ؟ إقْلَتْ: أَجَلُ قَالَا: فَأَيْنَ بَلَّغْتَ فِيهِمْ؟ قَلْتَ: أَمَا أَبُو مُحَمَّدٍ فَانْتَضَى عَلَيَّ لِسَانَهُ عِنْدَ الْمُسْتَعِينِ، وَسَاعَدَتْهُ

زراقّة استهواها من الحاسدين، وبلغني ذلك فأنشدته شعراً، منه:

وَبُلِّغْتُ تَجِيْشَ صُدُوْرِهِمْ

عليّ؛ وإني منهم فارغ الصدر

أصاخوا إلى قولي فأسمعت مُعْجَزا،

وغاصوا على سري فأعياهم أمري

فقال فريق: ليس ذا الشعرُ شعره؛

وقال فريق: أيمنُ الله، ما ندري

أما علموا أني إلى العلم طامح،

وأنني الذي سبقاً على عرقه يجري؟

وما كل من قاد الجياد يسوسها؛

ولا كل من أجرى يُقال له: مُجري

فمن شاء فليخبر فإنني حاضر،

ولا شيء أجلي للشُّكوك من الخبر

وأما أبو بكر فأقصر، واقتصر على قوله: له تابعة تؤيده. وأما أبو القاسم الإفليلي فمكأنه من نفسي مكين، وحبه بفؤادي دخیل؛ على أنه حاملٌ عليّ، ومنتسبٌ إليّ.

صاحب الإفليلي

فصاحا: يا أنف الناقة بن معمر، من سكان خيبر! فقام إليهما جنّي أشمط ربعة وارم الأنف، يتظالع في مشيته، كاسراً لطرفه، وزاوياً لأنفه، وهو ينشد:

قوم هم الأنف والأذنان غيرهم،

ومن يسوي بأنف الناقة الذنبا؟

فقالا لي: هذا صاحب أبي القاسم، ما قولك فيه يا أنف الناقة؟ قال: فتّى لم أعرف على من قرأ. فقلت لنفسني: العصا من العصية! إن لم تُعربي عن ذاتك، وتُظهري بعض أدواتك، وأنت بين فرسان الكلام، لم يطر لك بعدها طائر، وكنت غرضاً لكل حجرٍ عابر.

وأخذت للكلام أهبتة، ولبست للبيان بزته، فقلت: وأنا أيضاً لا أعرف على من قرأت. قال: ألمثلي يُقال هذا؟ فقلت: فكان ماذا؟ قال: فطارحني كتاب الخليل.

قلت: هو عندي في زنبيل. قال: فناظرني على كتاب سيبويه. قلت: خريت الهرة عندي عليه، وعلى شرح ابن درستويه. فقال لي: دع عنك، أبا أبو البيان.

قلت: لاه الله! إنما كمغن وسط، لا يحسن فيطرب، ولا يُسيء فيلهي. قال: لقد علّمنيهُ المؤدّبون. قلت: ليس هو من شأنهم، إنما هو من تعليم الله تعالى حيث قال: "الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ". ليس من شعرٍ يُفسّر، ولا أرض تُكسّر. هيهات، حتى يكون المسك من أنفاسك، والعنبر من أنفاسك، وحتى يكون مساقك عذبا، وكلامك رطباً، ونفسك من نفسك، وقلبك من قلبك، وحتى تتناول الوضيع فترفعه، والرفيع فتضعه، والقبيح فتحسنه! قال: أسمعني مثلاً. قلت: حتى تصف برغوئاً فتقول:

صفة برغوث

أَسودُ زنجي، وأهْيَ وحشي؛ ليس بوانٍ ولا زُميل، وكأنه جُزء لا يتجزأ من ليل؛ أو شُونِيزَة، أو ثَقَّتْها غريزة؛ أو نَقْطَةُ مِداد، أو سَوِيْداءُ قَلْبٍ قُرَاد؛ شُرْبُه عب، ومشيُه وثب؛ يَكْمُنُ نهاره، ويسري ليله؛ يدارك بطعنٍ مؤلم، ويستحلُّ دم كل كافرٍ ومُسلم؛ مُساوِرٌ للأساورَة، يَجُرُّ ذيله على الجبابر يتكفر بأرفع الثياب، ويهتك ستر كل حجاب، ولا يحفل ببُواب؛ مناهل العيش العذبة، ويصلُّ إلى الأحراج الرّطبة، لا يَمْنَعُ منه أمير، ولا يَنْفَعُ فيه غيرُه غيور، وهو أحقر كل حقير؛ شرُّه مَبْثوث، وعهده منكوث، وكذلك كُلُّ بُرْغوث، كفى نقصاً للإنسان، ودلالةً على قُدْرَةِ الرَّحْمَنِ.

صفة ثعلب

وحتى تصف ثعلباً فتقول: أدهى من عمرو، وأفتك من قاتل حُذيفة ابن بدر؛ كثيرُ الوقائع في المسلمين، مُغرى بإراقة دماء المؤذنين؛ إذا رأى الفُرْصة انتهزها، وإذا طلبته الكُماةُ أعجزها؛ وهو مع ذلك يُقْراطُ في إدامه، وجالينوس في اعتدال طعامه، غداؤه حمامٌ أو دجاج، عشاؤه تدرُج أو دُرَّاج.

صاحب بديع الزمان

وكان فيما يقابلني من ناديهم مثنى قد رمانى بطرفه، واتكأ لي على كفه، فقال: تحيّل على الكلام لطيفٌ، وأبيك! فقلت: وكيف ذلك؟ قال: أو ما علمت أنّ الواصف إذا وصف لم يتقدّم إلى صفته، ولا سُلط الكلام على نعته، اكتفى بقليل الإحسان، واحتجّزى بيسير البيان؛ لأنه لم يتقدم وصفٌ بقرئ بوصفه، ولا جرى مساقٌ يُضاف إلى مساقه. وهذه نسكتةٌ بغذائية، أنى لك بها يا فتى المغرب؟ فقلتُ لزهير: من هذا؟ قال: زبدة الحقب، صاحب بديع الزمان. فقلتُ: يا زبدة الحقب، اقترح لي قال: صف جاريةً. فوصفّتها. قال: أحسنت ما شئت أن تحسن! قلتُ: أسمعني وصفك للماء. قال: ذلك من العُقم. قلت: بحياتي هاته.

قال: أزرق كعين السّور، صافٍ كقضب البلور؛ انشخب من الفرات واستعمل بعد البيات، فجاء كلسان الشمعة، في صفاء الدمعة.

فقلْتُ: انظره، يا سيدي، كأنه عصيرُ صباح، أو ذوبُ قمرٍ ليّاح؛ ينضبُ من إنائه، انصباب
الكوكب من سمائه؛ العين حائوته، والفمُ عفريته، كأنه خيطٌ من غزلِ فُلُق، أو مخصرٌ
يُضربُ به من ورقٍ يُرفعُ عنك فتردى، ويُصدع به قلبك فتحيا.

فلما انتهيت في الصفة، ضرب زُبْدُ الحقب الأرض برجله، فانفرجت له عن مثل
برهوت، وتد هدى إليها، واجتمعت عليه، وغابت عينه، وانقطع أثره. فاستضحك
الأستاذان من فعله، واشتدَّ غيظُ أنفِ النّاقَةِ عليّ.

رجع إلى أنف النّاقَةِ

فقال: وقعت لك أوصافٌ في شعرك تظنُّ أني لا أستطيعُها؟ فقلْتُ له: وحتى تصف
عارضاً فتقول:

ومُرتجِزٍ ألقى بذِي الأثَل كلِّكلاً

وحطَّ بجرعاء الأبارقِ ما حطا

وسعى في قيادِ الرِّيحِ يُسمَحُ للصِّبا،

فألقت على غيرِ التَّلّاعِ به مرطاً

وما زال يُروي حتى كسا الرُّبى

درانك، والغيطان من نسجه بُسطاً

وعنت له ريحٌ تُساقطُ قطره

كما نثرت حسناء من جيدها سمطاً

ولم أرُ دُرّاً بدّته بُدّ الصِّبا
سواهُ، فبات النُّورُ يلقُطُه لقطا
وبتنا نُراعي الليلَ لم نطوِ بُرده،
ولم يجر شيبُ الصُّبحِ في فرعهِ وخطا
تراهِ كملكِ الرُّنَجِ في فرطِ كبرهِ،
إذا رام مشياً في تبخُّثهِ أبطا
مُطلاً على الآفاقِ والبدرِ تاجُهُ،
وقد علقَ الجوزاءُ من أذنه قُرطا
وحتى تصف ذُبّاً فتقول:
إذا اجتازَ علويُّ الرِّياحِ بأُفقه
أجدّ، لعرفانِ الصِّبا، يتنفس
تذكّرَ روضاً من شوي وباقٍ،
تولته أحرّاسُ من الدُّعرِ تُحرس
إذا انتابها من أذؤبِ القفرِ طارقُ

أزُلُّ كسا جُثمانه مُتستراً

طياس سُوْداً للُدْجى وهو أَطْلُسُ

فدَلَّ عليه لحْظُ خبٍ مُخادِعٍ،

فصاح فتیانُ الجن عند هذا البيت الأخير: زاه! وعلت أنف الناقَة كآبَة، وظهرت عليه مَهَابَة، واختلط كلامه، وبدا منه ساعتئذٍ بوا دٍ في خطابه، رحمه لها من حضر، وأشفق عليه من أجلها من نظر.

صاحب أبي إسحاق بن حمام

وشمر لي فتى، كان إلى جانبه، عن ساعدٍ، وقال لي: وهل يضُرُّ قريحتك، أو ينقُص من بديهتك لو تجافيت لأنف الناقَة، وصبرت له؟ فإنه على علَّته زيرُ علم، وزنبيلُ فهم، وكنفُ رواية. فقلت لزهير: من هذا؟ فقال: هو أبو الآداب صاحب أبي إسحاق بن حُمام جارل. فقلت: يا أبا الآداب، وزهرة ریحانةِ الكتاب، رفقا على أخيك بغرب لسانك، وهل كان يُضُرُّ أنف الناقَة، أو ينقص من علمه، أو يُفُلُّ شفرة فهمه، أن يصبر لي على زلة تمرُّ في شعرٍ أو خُطبة، فلا يهتَفُّ بها بين تلاميذه، ويجعلها طرمذة من طراميده؟ فقال: إنَّ الشَّبُوخَ قد تهفو أحلامهم في النَّدرة. فقلت: إنها المرَّة بعد المرَّة.

ثم قال لي الأستاذان عُتْبَة بن أرقم، وأبو هُبيرة صاحب عبد الحميد: إنا لنخبُط منك ببیداء حيرة، وثفتقُ أسماعنا منك بعبرة، وما ندري أنقول: شاعرٌ أم خطيبٌ؟ فقلت: الإنصاف أولى، والصدعُ بالحق أحجى ولا بُدَّ من قضاء. فقالا: اذهب فإنك شاعرٌ خطيب. وانفضَّ الجمع والأبصارُ إليَّ ناظرة، والأعناق نحوي مائلة.

الفصل الثالث - نقاد الجن

مجلس أدب

وحضرتُ أنا أيضاً وزهيرٌ مجلساً من مجالس الجن، فتذاكرنا ما تعاورته الشعراً من المعاني، ومن زاد فأحسن الأخذ، ومن قصر. فأنشد قول الأفوه بعض من حضر:

وترى الطيرَ على آثارنا

رأي عينٍ ثقةً أن سُمّار

وأنشد آخر قول النابغة:

إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم

عصائبُ طيرٍ تهتدي بعصائب

تراهنّ خلف القوم خُزراً عُيونها

جلوسُ الشيوخِ في ثيابِ المرانبِ

جوانحٍ، قد أيقنَ أنَّ قبيله،

إذا ما التقى الجيشانِ، أوّلُ غالبٍ

وأنشد آخرُ قول أبي نواس:

ثِقَّةً بِالشَّعْبِ مِنْ جِزْرِهِ

وَأَنْشَدَ آخِرُ قَوْلٍ صَرِيحٍ الْغَوَانِي:

قَدْ عَوَّدَ الطَّيْرُ عَادَاتِ وَثَقْنَ بِهَا

فَهُنَّ يَتْبَعْنَهُ فِي كُلِّ مُرْتَحِلٍ

وَأَنْشَدَ آخِرُ قَوْلٍ أَبِي تَمَامٍ:

وَقَدْ ظَلَلْتُ عِقْبَانُ أَعْلَامِهِ ضَحَى

بِعِقْبَانِ طَيْرٍ فِي الدِّمَاءِ نَوَاهِلِ

أَقَامَتْ مَعَ الرَّايَاتِ حَتَّى كَانَهَا

مِنَ الْجَيْشِ، إِلَّا أَنَّهَا لَمْ تَقَابِلِ

فقال شمردل السَّحابي: كلهم قصر عن النابغة، لأنه زاد في المعنى ودلَّ على أنَّ الطير إنما أكلت أعداء الممدوح، وكلامهم كلهم مشترك يحتمل أن يكون ضدَّ ما نواه الشاعر، وإن كان أبو تمام قد زاد في المعنى. وإنما المحسن المتخلَّص المتنبي حيث يقول:

لَهُ عَسْكَراً خَيْلٍ إِذَا رَمَى

بِهَا عَسْكَراً لَمْ تَبْقَ إِلَّا جَمَاعُهُ

وكان بالحضرة فتى حسن البرَّة، فاحتدَّ لقول شمردل، فقال: الأمرُ على ما ذكرت يا شمردل، ولكن ما تسأل الطيرَ إذا شبت أيُّ القبيلين الغالب؟ وأما الطيرُ الآخر فلا أدري لأي معنًى عافت الطيرُ الجماعم دونَ عظام السُّوق والأذرع والفقارات والعصاعص؟

ولكنّ الذي خلّص هذا المعنى كلّهُ، وزاد فيه، وأحس التركيب، ودلّ بلفظةٍ واحدةٍ على ما دلّ عليه شعراً النابغة وبيث المتنبي، من أن القتلَى التي أكلتها الطيرُ أعداء الممدوح، فأتاك بنُ الصّقعب في قوله:

وتدري سباعَ الطيرِ أنّ كُمامتهُ،

إذا لقيت صيدَ الكُمامةِ، سباعُ

لهنّ لأعابٍ في الهواء وهزّةُ،

إذا جدّ بين الدّرعين قراعُ

تطيّرُ جياعاً فوقهُ وتردّها

خُطباءهُ إلى الأوكار وهي شباعُ

تملك بالإحسانِ ربةً رِقها،

فهنّ رقيقٌ يُشتري ويُباعُ

والحمّ من أفراجها فهي طوعهُ،

لدى كل حربٍ، والمُلوكةُ تُطاعُ

ثمّاصعُ جرحاها فيُجهزُ نقرها

عليهم، وللطيّر العتاقِ مصاعُ

فاهتزّ المجلسُ لقوله، وعلموا صدقه. فقلّتْ لزهير: من فاتك بن الصّقعب؟ قال: يعني

نفسه. قلت له: فهلاً عَرَفْتَنِي شأْنَهُ منذَ حينٍ؟ إنِّي لأرى نزاعاتٍ كريمةً؟ وقمْتُ فجلستُ إليه جلسةَ المعظَّم له. فاستدار نحوي، مُكرماً لمكاني، فقلت: جُدْ أرضنا، أعزَّكَ الله، بسحابك، وأمطرنا بعيونِ آدابك. قال: سل عما شئت. قلت: أيُّ معنى سبقك إلى الإحسان فيه غيرُكَ، فوجدته حين رُمته صعباً إلا عليك أنك نفذت فيه؟ قال: معنى قول الكندي:

سموُّ إليها بعدما نام أهلها،

سموُّ حبابٍ حالاً على حالٍ

قلتُ: أعزَّكَ الله، هو من العُقم. ألا ترى عُمر بن أبي ربيعة، وهو من أطبع الناس، حين رام الدُّنُو منه والإلمام به، كيف افتضح في قوله:

ونفضتُ عني التوم أقبلتُ مشيةً الـ

حُبَابٍ، ورُكني خيفةَ القومِ أزورُ

قال: صدقت، إنه أساء قسمة البيت، وأراد أن يُلطف التَّوَصُّل، فجاء مُقبلاً بَرَكْتَ كركنه أزور. فأعجبني ذلك منه، وما زلتُ مقدِّماً لهذا المعنى رجلاً، ومؤخراً عنه أخرى، حتى مررتُ بشيخٍ يُعلِّمُ بنيّاً له صناعةَ الشَّعر وهو يقول له: إذا اعتمدت معنًى قد سبقك إليه غيرُكَ فأحسن تركيبه، وأرقِّ حاشيته فاضرب عنه جُملة. وإن لم يكن بُدٌّ ففي غير العروض التي تقدَّم إليها ذلك المحسن، لتنشط طبيعتُك طبيعتُك، وتقوى مُنَّتُك.

فتذكرتُ قول الشاعر وقد كنتُ أنسينته:

لما تسامى التَّجَمُّ في أفقهـ

ولاحت الجوزاء والمرزُ

أَقْبَلْتُ وَالْوِطَاءَ خَفِيفُ كَمَا

يَنْسَابُ مِنْ مَكْمَنِهِ الْأَرْقَمُ

فَعَلِمْتُ أَنَّهُ صَدَقَ؛ وَابْنُ أَبِي رَبِيعَةَ لَوْ رَكِبَ غَيْرَ عَرُوضِهِ لَخَلَصَ. فَقُلْتُ أَنَا فِي ذَلِكَ:

وَلَمَّا تَمَلَّأْتُ مِنْ سَكْرِهِ

فَنَامَ، وَنَامَتْ عَيُونُ الْعَسَسِ

دَوْتُ إِلَيْهِ، عَلَى بُعْدِهِ،

دُتُّو رَفِيقِي مَا التَّمَسَ

أَدْبُ إِلَيْهِ دَبِيبُ الْكَرَى،

وَأَسْمُو إِلَيْهِ سَمُو النَّفْسِ

وَبْتُ بِهِ لَيْلَتِي نَاعِمًا،

إِلَى أَنْ تَبَسَّمَ ثَغْرُ الْغُلَسِ

أَقْبَلُ مِنْهُ بَيَاضُ الطُّلَا،

وَأَرْشِيفُ مِنْهُ سَوَادُ اللَّعْسِ

فَقَمْتُ وَقَبَلْتُ عَلَى رَأْسِهِ، وَقُلْتُ: لَهُ دُرُّ أَبِيكَ! فَقَالَ لِي فَاتِكُ بْنُ الصَّقْعَبِ: فَهَلْ جَاذَبَتْ
أَنْتِ أَحَدًا مِنَ الْفَحُولِ؟ قُلْتُ: نَعَمْ قَوْلُ أَبِي الطَّيِّبِ:

أُخْلِعْ عن كتفي وأطلبه،

وأترك الغيث في غمدي وأنتجع؟

قال لي: بماذا قلت: بقولي:

ومن قُبّة لا يدرك الطّرفُ رأسها،

تزلُّ بها ريحُ الصّبا فتحدّرُ

إذا زاخمت منها المخارم صوّبت

هُويّاً، على بُعد المدى، وهي تجأرُ

تكلفُها، والليلُ قد جاش بحرّه،

وقد جعلت أواجهُ تتكسرُ،

ومن تحت حضني أبيضُ ذو سفاقس،

وفي الكف من عسالة الخط أَسْمُرُ

هما صاحباي من لدنِ كُنْتُ يافِعاً،

مُقيلانِ من جدّ الفتى حين يعثرُ

فذا جدولٌ في الغمد تُسقى به المُنَى،

فقال: والله لئن كان الغيثُ أبلغ، فلقد زدت زيادةً مليحةً طريفةً، واخترعت معاني

لطيفة. هل غيرُ هذا؟ فقلتُ: وقوله أيضاً:

وأظماً فلا أبدي إلى الماء حاجةً

وللشمس فوق البعلماتِ لُعابُ

قال: بماذا؟ قلتُ: بقولي:

ولم أنس بالتأووس الألى

بها أيُّنا محبوبها وحبابُها

وفتية ضربٍ من زناة، ممطرٍ

بوبل المنايا طعنها وضرابُها

وقفنا على جمرٍ من الموت وقفّةً،

صليّ لظاه دابٌ قومي ودابُها

فصاح صيحةً منكراً من صياح الجنّ كاد ينجب لها فؤادي فزعاً، والله، منه! وكان بنجوةً منا جنّي كأنه هضبة لركنتته وتقبضه، يحدّق في دُونهم، يرميني بسهمين نافذين، وأنا ألوذُ بطرفي عنه، وأستعيذُ بالله منه، لأنه ملأ عيني ونفسي. فقال لي لما انتهيت، وقد استخفه الحسد: على من أخذت الرّمير؟ قلتُ: وإنما أنا نفاخٌ عندك منذ اليوم؟ قال: أجل! أعطنا كلاماً يرعى تلاعَ الفصحاحة، ويستحمُّ بماء العذوبة والبراعة، شديد الأسر جيد التّظام، وضعه على أي معنّى شئت. قلت: كأَي كلام؟ قال: ككلام أبي الطّيب:

لمن بان عنه، أن نلَمَّ به ركبا
نذمُ السحاب الغرَّ في فعلها به،
ونُعَرِّضُ عنها، كلما طلعت، عتبا
وكقوله:

أرأيت أكبر همةً من ناقتي،
حملت يداً سُرحاً وخفقا مُجمرا
تركت دُخان الرَّمث في أوطانها،
طلما لقوم يوقدون العنبرا
وتكرَّم من رُكباثها عن مبركٍ
تقعان فيه، وليس مسكاً أذفرا
فأنتك دامية الأطل كأنما
حُذِبت قوائمها العقيق الأحمر
وكقوله:

على كل طاوٍ تحت طاوٍ كأنما

لها تحتهم ريُّ الفوارس فوقها،

فكلُّ حصانٍ دارعٌ مُتَلَتِّمٌ

وما ذاكُ بُخَالاً بالثُّفوسِ على القنا،

ولكنَّ صدمَ الشرِّ بالشرِّ أحزَمُ

فأدَّني والله بما قرع به سمعي، وقلت له: أيُّ ماء لو كان من جمامك واستهلت به عينُ
غمامك! ثم استقدمتُ فأنشدته:

ولرُبَّ ليلٍ للهمومِ تهدَّلت

أستارُه فحما الصُّوى بستوره

كالبحر يضربُ وجهه في وجهه،

صعبٌ على العُبار وجهُ عبوره

طاولته من عزمي بُمضَبَّرٍ،

أثبتُّ همي في قرارة كوره

وعلى للصَّبر الجميل مُفاضَةٌ،

تلقى الرَّدَى، فتكلُّ دون صبوره

وبرتحتي من فكرتي ذو ذُكرة،

عُهدت تُذاكرُنِي بطِيعِ ذِكِيرِهِ
فَزَاداً، إِذَا بَعَثْتَ دِيَا جِي جَنَحِهِ
هَوَلاً عَلَيَّ، خَبَطْتُ فِي دِيَجُورِهِ
حَتَّى بَدَأَ عَبْدُ الْعَزِيزِ لِنَاظِرِي
أَمَلِي، فَمَرَّقَتْ التُّجَى عَنْ نُورِهِ
وَأُنْشَدَتْهُ:

اللّٰه في أَرْضٍ غَذِيَتْ هَوَاءَهَا،
وَعَصَابَةٌ لَمْ تَتَّهَمِ إِشْفَاقَهَا
نَكَزَتْهُمْ أَفْعَى الْخُطُوبِ، وَعُوجُلُوا
بُمَثَلٍ مِنْهَا، فَكُنْ دِرْيَاقَهَا
وَافْتَحْ مِغَالِقَهَا بِعَزْمَةٍ فَيَصِلِ،
لَوْ حَاوَلْتَ سَوْقَ الثَّرِيَا سَاقَهَا
وَلَوْ أَنَّهَا مِنْهُ، إِذَا مَا اسْتَلَهَا،
تَتَعَرَّضُ الْجَوَازُءُ، حَلَّ نَطَاقَهَا

لا تبكِينُ من اللَّيالي أنها

حرمتك نغبة شاربٍ من مشربٍ

فأقلُّ ما لك عندها سيفُ الرّدى،

يُستلُّ من شعرِ القذالِ الأثيبِ

ورحيلُ عيشك كلّ رحلةٍ سلعة،

وفناء طيبك في الزّمان الأطيبِ

فإذا بكيت فبكّ عمرك، إنه

زجلّ الجناحِ يَمُرُّ مرَّ الكوكبِ

وأنشدته:

ولم أر مثلي ما له من مُعاصرٍ،

ولا كمضائي ما له من مُضافرٍ

ولو كان لي في الجو كسرُ أوْمُهُ،

ركبتُ إليه ظهر فتخاء كاسرٍ

وهمت بإجهائش علّ، وقد رأت

فقلْتُ لها: إن تجزعي من مُخاطري،

نك لن تحظي بغيرِ المخاطرِ

شت ثمار الوفر مني، وإنها

لدى كل مُبيح العنانيز وافرٍ

له في بياض اليوم يقظةُ فاجر،

وتحت سواد الليل هجعةُ كافرٍ

رويدك، حتى تنظري عمَّ تنجلي

غيابةُ هذا العارضِ المُتَنائِرِ

ودون اعتزامي هضبةُ كسروية،

من الحزم، سلمانيةً في المكاسر

إذا نحنُ أسندنا إليها، تبلجت

مواردنا عن نُيَّراتِ المصادرِ

وأنت، ابن حزم، منعش من عثارها

إذا ما شرقنا بالجدودِ العوائر

كَأُرْوَعٍ مَعْرُورٍ ظُهُورِ الْجَرَائِرِ
إِذَا مَا تَبْغِي نَضْرَةَ الْعَيْشِ كَرَّهَا،
لَدَى مَشْرِعٍ لِّلْمَوْتِ، لَمَحَّةَ نَاطِرٍ
فَسَلَّ مِنَ التَّأْوِيلِ فِيهَا مَهْنَدًا
أَخُو شَافِعِيَّاتٍ كَرِيمِ الْعُنَاصِرِ
لِمُعْتَزَلِي الرَّأْيِ، نَاءٍ عَنِ الْهُدَى،
بَعِيدِ الْمَرَامِي، مُسْتَمِينِ الْبَصَائِرِ
يُطَالِبُ بِالْهِنْدِيِّ فِي كُلِّ فَتْكَةٍ
ظُهُورِ الْمَذَاكِي عَنِ ظُهُورِ الْمَنَابِرِ
وَأُنْشَدْتَهُ:
وَقَالَتِ النَّفْسُ لَمَّا أَنْ خَلَوْتُ بِهَا،
أَشْكُو إِلَيْهَا الْهَوَى خُلُوءًا مِنَ النَّعَمِ:
تَامَ أَنْتَ عَلَى الضَّرَاءِ مُضْطَجِعٌ،
مُعَرَّسٌ فِي دِيَارِ الظُّلَمِ وَالظُّلَمِ؟

برء من الشوق، أو برء من العدم
ثم استمرّت بفضل القولِ تُنهضي،
فقلت: إني لأستحيي بني الحكم
المُلفحين رداء الشمس مجدهم،
والمنعلين الثريا أخصم القدم
ألمث بالحبّ، حتى لو دنا أجلى،
لما وجدتُ لطعم الموت من ألم
وزادني كرمي عمن ولهث به،
ويلي من الحبّ، أو ويلي من الكرم
تخوّنتني رجال طالما شكرت
عهدي، وأنت بما راعيت من ذمم
لئن وردت سُهيلاً غبّ ثالثة،
لتفرعنّ عليّ من ندم
هناك لا تبتغي غير السّناء يدي،

حتى راني في أدني مواكبهم،

على النعمامة شلاً من النعم

ريان من زفراة الخيل أوردّها

أمواه نيظة تهوي فيه باللّجُم

فُدّام من قوم وجدّتهم

أرعى لحقّ العلى من سالف الأمم

{قصيدة 1 ففتح عليّ عيين كالمأويتين ثم قال لي: من القائل:

طلع البدر علينا،

فحسبناه لبيبا

والتقينا، فرأينا

هـ بعيداً وقريبا

فيا من إذا رام معنى كلامي،

رأى نفسه نُصبَ تلك المعاني

شكوث إليك صروف الزّمان،

وتَقْصُرُ عَنْ هَمَّتِي قُدْرَتِي

فِيَا لِيَتَنِي لِسَوَى مِنْ نَمَانِي

وَلَا غَرَوْ لِلْحُرِّ، عِنْدَ الْمَضِيِّ

قِ، أَنْ يَتَمَنَى وَضِيعَ الْأَمَانِي

قُلْتُ: أَخِي قَالَ: فَمَنْ الْقَائِلُ؟

صَدُودٌ، وَإِنْ كَانَ الْحَبِيبُ مُسَاعِفًا،

وَبَعْدُ، وَإِنْ كَانَ الْمَزَارُ قَرِيبًا

وَمَا فَتَتْ تِلْكَ الدِّيَارُ حَبَائِبًا

لَنَا، قَبْلَ أَنْ نَلْقَى بِهِنَّ حَبِيبَا

وَلَوْ أَسْعَفَتْنَا بِالْمَوَدَّةِ فِي الْهَوَى، لِأَدْنَيْنِ إِلْفًا، أَوْ شَغْلِنِ رَقِيبَا

وَمَا كَانَ يَجْفُو مَمْرُضِي، غَيْرَ أَنَّهُ

إِقْلْتُ: عَمِي. قَالَ: فَمَنْ الْقَائِلُ؟

أَتَيْنَاكَ، لَا عَنْ حَاجَةٍ عَرَضَتْ لَنَا

إِلَيْكَ، وَلَا قَلْبٍ إِلَيْكَ مَشُوقٍ

حماراً، تلقى بَرّاً بعُقُوقِ

قلت: جدي. قال: فمن القائل؟

ويلي على أحور تياه،

أحسن ما يلُوه به اللّاهي

أقبل في غيدِ حكين الطّبا،

بيض تراقِ أفواهٍ

يأمرُ فيهنّ وينهى، ولا

يعصينه من أمرٍ ناهي

حتى إذا أمكنني أمره،

قلت: جدُّ أبي. قال: فمن القائل؟

ويح الكتابة من شيخٍ هبّقة،

يلقى العيون برأسٍ محه رار

ومنتنِ الرّيحِ إن ناحيته أبداً

كأنما مات في خبثومه فارُ

قلت: أنا قال: والذي نفس فرعون بيده، لا عرضتُ لك أبداً، إني أراك عريقاً في الكلام.

ثم قلّ واضمحلاً حتى إنّ الخنفساء لتدوسّه، فلا يشغل رجلها. فعجبتُ منه، وقلت
لزهير: من هذا الجني؟ فقال لي: استعذ بالله منه، إنه ضرط في عين رجلٍ فبدرت من
قفاه، هذا فرعونُ ابن الجون. فقلْتُ: أعودُ بالله العظيم، من النار ومن الشيطان الرَّجيم!
فتبسّم زهيرٌ وقال لي: هو تابعةٌ رجلٍ كبيرٍ منكم، ففهمتها عنه.

الفصل الرابع - حيوان الجن

لغة الحمير

ومشيث يوماً وزهير بأرض الجن أيضاً نتقرى الفوائد ونعتمد أندية أهل الآداب منهم،
إذ أشرفنا على قراره غناء، تفرغ عن بركة ماء، وفيها عانة من حُمُر الجن وبغالهم، قد
أصابها أولق فهي تصطك بالحوافر، وتنفخ من المناخر، وقد اشتدَّ ضراطها، وعلا
شحيجها وهاقها. فلما بصرت بنا أجفلت إلينا وهي تقول: جاءكم على رجليه! فارتعت
لذلك، فتبسّم زهير وقد عرف القصد، وقال لي: تهياً للحكم. فلما لحقت بنا بد أني
بالتفدية، وحيثني بالتكنية. فقلت: ما الخطب، حُمي حماك أيتها العانة، وأخصب
مرعاك؟ قالت: شعران لحمارٍ وبغلٍ من عشاقنا اختلنا فيها، وقد رضىناك حكماً قلت:
حتى أسمع. فقدّمت إليّ بغةً شهباء، عليها جلّها وبرقعها، لم تدخل فيما دخلت فيه
العانة من سوء العجلة وسُخف الحركة، فقالت: أهدّ الشعيرين لبغلي من بغالنا وهو:

على كل صب من هواه دليل:

سقام على حر الجوى، وئحُول

وما زال هذا الحب داءً مُبرحاً، إذا ما اعتري بغلاً فليس يزول

بنفسي التي أما ملاحظ طرفها

فسحر، وأما خدّها فأسيل

تعبت بما حُمِلت من ثقل حُبها،

وإني لبغلٍ للثقالِ حمُول

وما نلتُ منها نائلاً غير أنني

إذا هي بالتُّ بُلْتُ حيثُ تَبُولُ

والشَّعر الآخرُ لُذْكَيْنِ الحمار:

دُهيْتُ بهذا الحب منذُ هويْتُ،

وراثتُ إراداتي فلسْتُ أريْتُ

كَلَفْتُ بِإِلْفِي منذُ عشرين حَجَّةً،

يَجُولُ هواها في الحشا ويعيْتُ

ومالي من برحِ الصَّبابةِ مخلصُ،

ولا لي من فيضِ السَّقَامِ مُغيثُ

وغير منها قلبها لي نَمِيمَةٌ،

نماها أحمُّ الخُصيتَيْنِ خبيثُ

وما نلتُ منها نائلاً، غير أنني

إذا هي راثتُ حيثُ تروثُ

ففضحك زهيرٌ، وتماسكتُ، وقلْتُ للمنشدة: ما هويْتُ؟ قالت: هو هويْبُ، بلغة الحمير.
فقلت: والله، إن للروثِ رائحة كريمةً، وقد كان أنف الناقة أجدر أن يحكم في الشعر!

وقالت لي البغلة: أما تعرفني أبا عامر؟ قلت: لو كانت ثمَّ علامة! فأماطت لثامها، فإذا هي بغلة أبي عيسى، والخال على خدها، فتباكينا طويلاً، وأخذنا في ذكر أيامنا، فقالت: ما أبقيت منك؟ قلت: ما ترين. قالت: شبَّ عمرؤ عن الطوق! فما فعل الأعبة بعدي، أ هم على العهد؟ قلت: شبَّ الغلمان، وشاخ الفتیان، وتنكرتِ الخلان؛ ومن إخوانك من بلغ الإمارة، وانتهى إلى الوزارة. فتنفستِ الصُّعداء، وقالت: سقا هم الله سبل العهد، وإن حالوا عن العهد، ونسوا أيام الود. بحرمة الأدب، إلّا ما أقرأتهم مني السلام؛ قلت: كما تأمرين وأكثر.

الإوزة الأدبية

وكانت في البركة بقرينا إوزة بيضاء شهلاء، في مثل جُثمان النّعام، كأنما دُرٌّ عليها الكافور، أو لبست غلالة من دمقس الحرير، لم أر أخفَّ من رأسها حركة، ولا أحسن للماء في ظهرها صبا، تنني سالفتها، وتكسر حدقتها، وتلؤلّب قمحدوتها، فتري الحُسن مستعاراً منها، والشكل مأخوذاً عنها، فصاحت بالبغلة: لقد حكمثهم بالهور، ورضيتم من حاكمكم بغير الرضا.

فقلتُ لزهير: ما شأنها؟ قال: هي تابعة شيخ من مشيختكم، تسمى العاقلة، وتكنى أمّ خفيف، وهي ذات حظ من الأدب، فاستعدّ لها. فقلتُ: أيتها الإوزة الجميلة، العريضة الطويلة، أيحسنُ بجمال حدفتيك، واعتدال منكبيك، واستقامة جناحيك، وطول جديك، وصغر رأسك، مقابلة الصّيف بمثل هذا الكلام، وتلقي الطارئ الغريب بشبه هذا المقال؟ وأنا الذي همت بالإوزة صباغة، واحتملت في الكلف بها عصّ كل مقالة؛ وأنا الذي استرجعتها إلى الوطن المألوف، وحببها إلى كل غطريف، فاتخذتها السادة بأرضنا واستهلك عليها الطُرفاء منا، ورضيت بدلاً من العصافير، ومُتكلّمات الزرازير، ونُسيت لذة الحمام، ونقاّر الديوك، ونطاح الكباش.

فدخلها العُجب من كلامي، ثم رفعت وقد اعترتها خفة شديدة في مائها، فمرةً سابحة، ومرةً طائرة، تتغمس هنا وتخرجُ هناك، قد تقبب جناحها، وانتصبت ذنابها، وهي تُطرب تطريب السرور؛ وهذا الفعل معروفٌ من الإوز عند الفرح والمرح. ثم سكنت وأقامت عُنفها، وعرضت صدرها، وعلمت بمجدافها، واستقبلتنا جائية كصدر المركب،

فقلت: أيها الغارُّ المغرور، كيف تحكم في الفروع وأنت لا تحكم الأصول؟ ما الذي تحسن؟ فقلت: ارتجال شعر، واقتضابُ خطبة، على حكم المقترح والنُصبة. قالت: ليس عن هذا أسألك. قلت: ولا بغير هذا أجابك. قالت حكم الجواب أن يقع على أصل السؤال، وأنا إنما أردتُ بذلك إحسان النحو والغريب اللذين هما أصل الكلام، ومادَّة البيان. قلت: لا جوابٌ عندي غير ما سمعت. قالت: أقسم أنَّ هذا منك غير داخلٍ في باب الجدل. فقلت: وبالجدل تطلبيننا وقد عقدنا سلمه، وكُفينا حربه، وإنَّ ما رميتك به منه لأنفدُ سهامه، وأحدُ حراجه، وهو من تعاليم الله. عزَّ وجلَّ، عندنا في الجدل في مُحكم تنزيله. قالت: أقسم أنَّ الله ما علمك الجدل في كتابة قلت: محمول عنك أمَّ خفيف، لا يلزمُ الإوزة حفظُ أدب القرآن، قال الله، عزَّ وجلَّ، في مُحكم كتابه حاكياً عن نبيه إبراهيم، عليه السلام: "ربي الذي يُحيي ويُميتُ، قال: أنا أحيي وأميت". فكان لهذا الكلام من الكافر جواب، وعلى وجوه مقال؛ ولكنَّ النبيَّ ﷺ، لما لاحَته الواضحةُ القاطعة، رمأه بها، وأضرب عن الكلام الأول، قال: "فإنَّ الله يأتي بالشمس من المشرق، فأت بها من المغرب، فلهت الذي كفر" وأنا لا أحسنُ غير ارتجال شعر، واقتضابِ خطبة، على حكم المقترح والنُصبة، فاهتَزَّت من جانبيها، وحال الماء من عينيهما، وهَمَّت بالطيران. ثم اعتراها ما يعتري الإوزَ من الألفة وحسن الرَّجعة، فقَدَّمت عُنُقها ورأسها إلينا نمشي نحونا رويداً، وتنطق نطقاً مُتداركاً خفياً، وهو فعل الإوز إذا أنست واستراحت وتدلَّت؛ على أني أحبُّ الإوزَ وأستظرفُ حركاتها وما يعرضُ من سخافاتِها.

ثم تكلمتُ بها مبسبساً، ولها مؤنساً، حتى خالتتنا وقد عقدنا سلمها وكُفينا حربها، فقلت: يا أمَّ خفيف، بالذي جعل غذاءك ماء، وحشا رأسك هواء، ألا أيما أفضل: الأدب أم العقل؟ قالت: بل العقل. قلت: فهل تعرفين في الخلائق أحق من إوزة، ودعيني من مثلهم في الحُبَّارى؟ قالت: لا قلت: فتطلبِي عقل التَّجربة، إذ لا سبيل لك إلى عقل الطبيعة، فإذا أحرزت منه نصيباً، وبؤت منه بحظ، فحينئذٍ ناظري في الأدب. فانصرفت وانصرفنا.

تمت الرسالة بحمد لله.

Source credits

ويكي مصدر العربية

https://ar.wikisource.org/wiki/%D8%B1%D8%B3%D8%A7%D9%84%D8%A9_%D8%A7%D9%84%D8%AA%D9%88%D8%A7%D8%A8%D8%B9_%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%B2%D9%88%D8%A7%D8%A8%D8%B9

https://ar.wikisource.org/wiki/%D8%B1%D8%B3%D8%A7%D9%84%D8%A9_%D8%A7%D9%84%D8%AA%D9%88%D8%A7%D8%A8%D8%B9_%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%B2%D9%88%D8%A7%D8%A8%D8%B9

النص العربي الكامل في ويكي مصدر، بأقسامه الأصلية وترتيبها؛ نُسخ محفوظة بمعرّفات المراجعات في سجل المصدر بتاريخ 2026-10-19.

النص الأصلي في الملكية العامة؛ توفي المؤلف سنة 1035م. إسهامات النسخ في ويكي مصدر منشورة وفق رخصة المشاع الإبداعي نَسَب المُصنَّف-المشاركة بالمثل 4.0: <https://creativecommons.org/licenses/by-sa/4.0/>. تبقى هذه الرخصة واجبة على الإسهامات المحمية؛ لا تُنسب إليها قيود على النص الأصلي الواقع في الملكية العامة.

تأليف ابن شهيد؛ النسخ الإلكتروني لمساهمي ويكي مصدر العربية. يُنسب كل قسم إلى صفحة مصدره وتاريخ مساهميتها؛ الروابط ومعرّفات المراجعات محفوظة في سجل المصدر. اقتصر التغيير على حذف واجهة الموقع والفهارس المكررة وإعادة تنسيق الفراغات، مع إبقاء المتن والشعر والحواشي الأصلية.

رسالة التوايع والزوايع

ابن شهيد